العصر الحجري المعدني
((ابرز الانجازات الحضارية في بلاد الرافدين))

د. حسين ظاهر حمود

كلية الآثار

بدأ هذا العصر مع انتهاء العصر الحجري الحديث في حدود ٥٦٠٠ ق.م تقريباً، واستمر إلى بدايات العصر الكتابي حدود ٣٥٠٠ ق.م مع ظهور أولى العلامات الصورية التي استخدمت للتدوين، أي أن هذا العصر امتد قرابة ألفي سنة، ويعد هذا العصر عصراً ذهبياً في تاريخ الحضارة العراقية القديمة لما تمخض عنها من تطورات جديدة مهدت السبيل للانتقال في العصر التالي نحو مرحلة الانقلاب الحضري والتمدن في عصر فجر السلالات السومرية.

وقد ارتأى الباحثون إلى إطلاق عدة تسميات على هذا العصر، ومنها تسمية عصر ما قبل السلالات Pre-Dynastic التي تحمل مدلولاً سياسياً تشير إلى عدم قيام سلالات الحاكمة فيه كالسلالات السومرية التي ظهرت في بلاد سومر وأكد في العصر التالي[١].

كما اقترح البعض الأخر إلى تسميته بعصر الفخار الملون، نسبة إلى الفخار المميز المزخرف المتعدد الألوان الذي ظهرت صناعته خلال العصر في العديد من المواقع الشمالية والجنوبية من العراق[٢].

وسمي العصر أيضا بتسمية العصر الحجري المعدني، لمعرفة الإنسان استخدام المعادن في النصف الثاني منه إلى جانب الحجارة التي ظلت المادة المعتمدة في صناعة بعض الآلات والأدوات[٣].

وكما نوهنا فان هذا العصر شمل فترة زمنية طويلة تقارب الألفين سنة، لذا فقد عمد الباحثون تقسيمه إلى عدة ادوار حضارية وفقاً للدلائل المبنية على تعاقب الطبقات التي ضمت أثار العصر في تقنية العمل لأشكال وألوان الأواني الفخارية وجودة صناعتها وطبيعة الزخارف المنفذة عليها وطراز الأبنية المعمارية، فضلاً عن بعض المبتكرات وبوادر التحولات الحضارية الأخرى التي حصلت في كل دور من أدوارها، كاستخدام المعادن واختراع الدولاب والعربة ذات العجلات والزوارق الشراعية أو الأختام، والى غير ذلك من التطورات التي أملتها ظروف المرحلة الجديدة.

اكتشفت أثار الأدوار الحضارية التي تعود إلى هذا العصر في مواقع أثرية عديدة من بلاد الرافدين ونسبت أدوارها إلى أسماء المواقع التي وجدت فيها أثارها المميزة لأول مرة وهي حسب تسلسلها الزمني الآتي:

دور حسونة:

أطلق على الدور الأول من ادوار العصر الحجري المعدني اسم حسونة، نسبة إلى موقع حسونة الذي يقع جنوبي شرقي الموصل بحوالي ٣٥ كم قرب ناحية الشورة، وأمكن تاريخ بداية هذا الدور من حدود سنة ٥٦٠٠ ق.م إلى نحو ٤٦٧٥ ق.م،[٤] ويمثل مستوطناً قروياً نموذجياً متطوراً لأسلوب وطبيعة الاستقرار للمجتمع الزراعي، وبدأ التنقيب فيه من قبل مديرية الآثار العراقية بين سنتي ١٩٤٣-١٩٤٤، وأظهرت بقايا أثار ست عشرة طبقة من ادوار السكنى تندرج في خمسة ادوار حضارية، وقد عثر في الطبقة الاستيطانية الأولى على أثار أواخر العصر الحجري الحديث، ويبدو أن ساكنيها قد اتخذوا الخيام والأكواخ منازل، إذ لم يكشف فيها عن هياكل للأبنية، أما الطبقات العليا منها

فقد تبين لنا تعود إلى العصر الحجري المعدني، حيث وجدت فيها الأبنية مشيدة من الطين (الطوف)، وهي في تخطيتها منتظمة تكاد تكون شبيهة لبيوت الفلاحين حالياً في احتوائها على عدد الغرف المستطيلة والمرافق العديدة الملحقة بها والتي تنتظم حول فناء مركزي، ومن تتبع أثار المرتحل التالية تبين إن طرق تشييد تلك الأبنية قد تطورت بتقدم الزمن وازدادت مرافقها وغرفها بتفاصيل أكثر من حيث الترتيب المدروس والمنتظم لاتجاهات الوحدات السكنية وعلاقاتها العضوية، مما يوضح بعض جوانب العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، فكانت تشمل أفرانا للخبز والجرار، وأما أرضية المباني فتدك تربتها، كما ضمت هذه الأبنية أبوابا ثبتت في أسفلها محاجر لسهولة حركتها، فضلاً عن احتوائها على النوافذ التي استخدمت للتهوية والإضاءة وكانت تفتح نحو الفناء المركزي.(٥)

وكشف المنقبون تحت أرضيات تلك الأبنية على مخازن بهيئة أحواض كبيرة من حيث التخطيط كان يتم فيها خزن الحبوب، كما دلت الملتقطات المكتشفة إلى تصنيع الآلات والأدوات المنزلية كانت من الحجارة كالهواوين والمناجل والمحاريث والفؤوس الحجرية والمغازل،(٦) أما المعادن فلم يكن قد تم استعمالها بعد خلال هذا الدور.

وفيما يخص الصناعة الفخارية في دور حسونة، فقد دلّ دراستها على تطور ووعي جديد من نتيجة الخيرة والتجربة العملية المتزايدة في تصنيعها، إذ أظهرت أعمال التنقيب الكثير من الأواني المزخرفة بألوانها وأشكالها المتعددة بحيث يمكن من خلالها أن نتتبع الفترات الحضارية المختلفة التي شملها الدور، وقد تمكن الباحثون أن يميزوا نوعاً من الفخار المتطور منها أطلقوا عليه فخار حسونة النموذجي الذي تميز بزخرفته ذات الخطوط المستقيمة والمتقاطعة والمثلثة، وتتمثل معظم الأواني الفخارية المكتشفة منها بالجرار الكروية ذات الأعناق القصيرة والعالية وأنواع من الكؤوس والطاسات ذات القواعد المسطحة والكروية(٧).

انتشرت فخاريات حسونة إلى العديد من المواقع الشمالية المجاورة مثل تل مطارة بمنطقة كركوك، وتل الصوان في سامراء ونينوى، كما يرجح إنها وصلت إلى بعض المواقع السورية وباتجاه أقصى شمالها(٨).

ويستدل من المخلفات الأثرية المكتشفة من هذا الدور عن معتقدات الإنسان الدينية واتجاهها نحو نوع من العبادة من خلال بعض النماذج الطينية المصنوعة بهيئة دمى أنثوية سمجة تشير إلى تقديس الأمومة والخصوبة، كما أن بعض القبور المكتشفة التي يظهر فيها أسلوب دفن الأطفال في الجرار (الأواني الدفنية) مع الأثاث الجنائزي توحي نحو بعض من الأفكار والمعتقدات الخاصة بحياة ما بعد الموت عند الإنسان آنذاك(٩).

ومن الخطوات المهمة التي ألقت ضوءاً على بداية العلاقات التجارية بين المستوطنات الزراعية استظهار بعض المواد الأثرية في موقع حسونة ومنها الأحجار شبه الثمينة كالفيروز والملكبيت التي استخدمن لصناعة الخرز والتمائم وبع الآلات والأدوات المصنوعة من حجر الاوبسيديان وهو من مؤشرات قيام حركة التجارة بين سكان حسونة والجماعات الأخرى، إذ أن هذه الأحجار لا تتوفر في ارض العراق أصلا، لذا يرجح إنها كانت تجلب من الأقطار المجاور.(١٠)

دور سامراء:

حدد زمن ظهور هذا الدور في حوالي ٥٤٠٠ ق.م، وتعرف المنقبون على الفخر الخاص به خلال الحفريات التي قاموا بها قبيل الحرب العالمية الأولى ١٩١١ – ١٩١٤ تحت بقايا الدور السكنية من فترة سامراء العباسية، واستمرت التنقيبات فيها بعد ذلك من قبل مديرية الآثار العراقية، وكشفت عن أوانيه المتميزة المصبوغة باللون الأسود الفاتح والأسمر على سطح ذات لون اصفر باهت نقشت عليه

زخارف هندسية دقيقة مؤلفة من خطوط أفقية متوازية تزينها بعض الإشكال الحيوانية مثل الطيور والأسماك والعقارب والأيائل، فضلاً عن تنفيذ بعض الأشكال الآدمية عليها بهيئة تخطيطية.(١١)

وأمكن تحديد انتشار هذا النوع من الأواني في المنطقة الشمالية من العراق، ومن ذلك مثلاً وجدت نماذج منها في نينوى (ط ٢ ب) وفي حسونة وحلف ويارم تبه أيضا.(١٢)

ومن المظاهر الأثرية المميزة التي يمكن تلمسها في المواقع السامرائية استمرار السكان في صناعة الالاتهم وأدواتهم من الحجارة ولاسيما النوع البركاني منه المعروف بحجر الاوبسيديان،(١٣) كما صنعوا أعداد كبيرة من الدمى الطينية الأنثوية الصغيرة المرتبطة بالخصوبة والتكاثر التي أطلق عليها بالآلهة الأم.(١٤)

أما بقايا القرى العائدة إلى هذا الدور فتشير نتائج الحفريات فيها إلى سعتها وإقامة الوسائل الدفاعية حولها، فكانت قرية جوخة مامي السامرائية مثلاً تغطي مساحة تبلغ حوالي ٥ هكتارات وأحيطت حولها بسور أقيم في احد جهاتها برج استخدم للمراقبة، كما أحاط بموقع تل الصوان خندق وسور، وكان يتم الدخول إلى كل منهما عن طريق مداخل متعرجة لإعاقة المهاجمين إليها، وكانت معظم المساكن في تل الصوان وجوخة مامي منتظمة التخطيط، ففي تل الصوان على شكل حرف T ومستطيلة في جوخة مامي(١٥).

يتأكد من الدلائل الأثرية أيضا استعمال المعادن في هذا الدور، إذ وجدت بعض المواد النحاسية المطروقة في تل الصوان.(١٦)

ولعل أهم المكتشفات الجديدة في هذه المرحلة ما يتعلق بالاقتصاد، فقد قاوحت أدلة المتحجرات في كل من تل الصوان وجوخة مامي إلى بداية استخدام وسائل الري في المنطقة، حيث كشفت العديد من القنوات الاصطناعية المتجهة نحو الأراضي الزراعية،(١٧) ويمكن أن تعد هذه التجارب خطوات تمهيدية وأولوية بالنسبة للمشاريع الروائية الكبرى التي أقامها العراقيون القدماء في الجنوب خلال العصور التالية.

دور حلف:

اشتق اسم هذا الدور من اسم التل الأثري المسمى (حلف) الذي يطل على نهر الخابور في شمال سوريا قرب قرية رأس العين، وقد نقبت فيها بعثة أثرية ألمانية برئاسة الباحث فون اوبنهايم قبيل الحرب العالمية الأولى ونشرت نتائج أعمالها عام ١٩٣١.

ويعد موقع الاربجية (بالموصل) من المواقع الأثرية المتميزة لدراسة آثار هذا الدور، فقد نقبت فيه عدة بعثات منذ عام ١٩٣٢ وأسفرت أعمال تلك التحريات استظهار العديد من الطبقات الأثرية التي ألقت ضوءاً على حضارة حلف والخصائص الجديدة التي تميزت بها(١٨). فمن ابرز المظاهر الأثرية التي اشتهرت بها الصناعة الفخارية حيث ضم نوعاً من الفخار الملون الجميل تتمثل في أنواع من الأواني الرقيقة الزاهية بالألوان كالأصفر والبرتقالي والأحمر والأسود، وفي الواقع إن الأواني الفخارية المعمولة في هذا الدور وصل إلى درجة من الجودة ودقة انتظام الأشكال وروعتها بحيث أن صناعتها المتقنة ترقى على مجمل المصنوعات الفخارية الملونة في تاريخ الحضارات القديمة، ومما يثير الذهول إن هذه الفخاريات المكتشفة كانت قد صنعت بواسطة اليد بسبب عدم ابتكار الإنسان لدولاب الفخار بعد.(١٩)

وضمت تلك الأواني الفخارية أشكالا عدة منها الأقداح ذات الرقاب المفلطحة والجرار المقروضة والأباريق والدوارق والأوعية والصحون وغيرها، أما الزخارف التي زينتها فكانت منتظمة ورائعة تتألف من خطوط هندسية مختلفة كالخطوط المتقاطعة والمثلثات والمربعات والمعينات والدوائر الصغيرة، كما نفذت عليها أشكال حيوانية وأخرى نباتية مثل الورود والطيور والغزلان ورؤوس الثيران التي رسمت بهيئة تخطيطية،[٢٠] يضاف إلى ذلك بعض الأشكال الشبيهة بالفأس ذات الرأسين أو ما يسمى بالمربع المالطي[٢١].

انتشرت فخاريات حلف إلى عدد من المواقع الأثرية الشمالية المجاورة منها يارم تبه وتبه كورا وغيرها، كما امتد انتشارها غرباً مع امتداد القوافل التجارية إلى مواقد جغار بازار وتل براك وكركميش شمال سوريا واوغاريت (رأس شمرا) على ساحل البحر المتوسط[٢٢].

هذا ويتفق الباحثون على الأصل العراقي لهذا الفخار، إذ انتقلت إلى موقع حلف في سوريا تأثيرات تقنية الصناعة والتلوين من شمال العراق وخاصة من منطقة نينوى (حسونة، سامراء) التي ظهرت فيها صناعة الفخاريات الملونة من فترة مبكرة تعود إلى حدود الألف السادس ق.م، فضلاً عن ذلك فان بداية ظهور الفخاريات الحلقية كان في المواقع الشمالية من العراق وخاصة موقع الاربجية حيث يمكن تتبع تطورها لعدد من المراحل[٢٣].

ومن أهم ما تميز دور حلف عن ادوار العصر الحجري المعدني طراز الأبنية الدائرية المكتشفة فيه والتي سميت بـ (الثولوي) وهي تشبه أبنية القبور المسينية التي يعود إلى زمن متأخر عن دور حلف، وقد عثر على عشرة من هذه الأبنية المستديرة في الاربجية تقدر اقطارها ما بين ٥.٥ إلى ٧م.[٢٤] كما أظهرت أعمال التنقيب نماذج أخرى من هذه الأبنية المدورة في ط ٢ من موقع يارم تبه غربي تلعفر،[٢٥] وكذلك في موقع تبه كورا (ط ١٧) كشفت عدد من الأبنية المستديرة أيضا[٢٦]. شيدت هذه الأبنية المستديرة من الطين (الطوف) بما يشبه خلايا النحل، وتم رصف أسسها بالحجارة، ويعتقد أنها كانت تسقف بقباب معقودة استناداً إلى أشكال النقوش المنفّذة على عدد من الأواني الفخارية تظهر عليها مباني مقببة،[٢٧] وعلى الأرجح أن عملية تسقيف هذه المباني كان يتم عن طريق تغطيتها بسيقان الأشجار وتكسى من بعد بطبقة من الحصى والطين، وفي الواقع أن لهذا الطراز المعماري أهمية خاصة، فهي تشير إلى إتقان أسلوب بناء العقود آنذاك وأصالتها في العراق القديم.

تمثل نوعاً من المعابد والمراقد الدينية، بينما أوضح البعض الآخر إلى أنها تؤلف طرازاً خاصاً من دور السكن ولاسيما الصغيرة منها، أما الكبيرة منها فكانت بمثابة المضايف أو المجالس المدني لمجتمع الفلاحين[٢٨].

واستظهرت أعمال التنقيب في هذا الخصوص عن بعض المباني الأخرى المستطيلة من حيث التخطيط يفترض أنها كانت تسقف بشكل جملوني لملائمتها ظروف البيئة الطبيعية في المنطقة[٢٩].

ومما يرتبط بالعقائد الدينية في حضارة حلف بعض النماذج الأثرية المميزة المكتشفة ونمها الدمى الطينية الأنثوية التي صورت بهيئة نسوة بدينات تم التأكيد فيها على الصفات الأنثوية المرتبطة بالخصوبة والتكاثر وزينت بعدد من النقاط عليها يعتقد أنها نوع من الوشم،[٣٠] يضاف إليها عدد من الرموز الدينية المتمثلة بهيئة دمى طينية كالحمام والفأس ذات الرأسين ورأس الثور، كما وجد فيها نوع من الاعتقاد بحياة ما بعد الموت استناداً إلى دفن الموتى في قبورهم وبمعيتهم الأدوات الجنائزية لغرض استخدامها في العالم الثاني.[٣١]

واهم ما يميز به دور حلف في تاريخ حضارة بلاد الرافدين ظهور البوادر الأولى لتصنيع المعادن وخاصة النحاس رغم المعرفة البدائية لها،[٣٢] وان هذا التطور الجديد يشير إلى التخصص في الأعمال وبداية قيام الحرف والمهن المختلفة فيها.

هذا وتعكس نتائج الحفريات التي تمت في القرى العائدة لحلف التي تقدمها من حيث السعة والتنظيم في طراز تشييد الأبنية على الطرقات البلطة بالحجارة مما يوحي إلى وضع بدايات أسس التخطيط العمراني في بلاد الرافدين خلال هذا العصر.[٣٣]

وكشف التنقيب في المواقع الأثرية الحلفية عن أنواع مهمة من القلائد والدلايات المصنوعة من حجر الستيتايت الأخضر إلى جانب بعض النماذج الأخرى من المحار وحجر الاوبسيديان،[٣٤] ويبدو أن المواد المذكورة كان يتم إيرادها من المناطق المجاورة عن طريق التجارة التي اتسعت حركتها آنذاك بين مختلف القرى الزراعية في منطقة الشرق الأدنى القديم.

كما عثر أثناء التنقيب على بعض الأشكال المسطحة والتي صنعت بطرز دائرية أو مستطيلة ومن ثم ثقبها لتوضع حول الرقبة بواسطة خيط، ونقشت عليها خطوط مستقيمة ومتقاطعة وبعض الأشكال الحيوانية، ويبدو أن الغرض من صنع هذه النماذج كان لاستخدامها في ختم سدادات الجرار الفخارية أو فوهاتها التي تودع فيها الممتلكات المنقولة، وبذلك تعد هذه الأختام أقدم أنواع الأختام المنبسطة المستخدمة في العراق والتي سبقت ظهور الأختام الاسطوانية بحوالي ألف سنة.[٣٥]

دور العبيد:

نسب هذا الدور إلى موقع العبيد الأثري قرب أور بالناصرية، ويكتسب دور العبيد من ادوار العصر الحجري المعدني أهمية كبيرة، لانه يمثل أقدم عهود الاستيطان البشري في القسم الجنوبي من العراق وبداية فترة ازدهار شمل القطر كله في وحدة حضارية متكاملة.[٣٦]

بدأت أعمال التنقيب في موقع العبيد عام ١٩٢٦ – ١٩٢٧، كان من نتائجها استظهار نوع من الفخار الملون سمي بفخار العبيد، وفي السنوات التالية استمرت التحريات الأثرية في مواقع كثيرة تعود إلى هذا الدور في جنوب وشمال العراق تبين من خلالها إن فخار العبيد قد مر بعدة أطوار زمنية يتميز كل منها عن الآخر بأنواع من الفخار أمكن تحديد تسلسلها الأثري وفقاً لقدمها وأنواعها المكتشفة في تلك المواقع وتم تصنيفها كالآتي: اريدو، حاج محمد ورأس العمية، العبيد القديم، العبيد المتأخر،[*] وفيما يأتي نشير إلى أهم المواقع العبيدية:

اريدو:

يعرف هذا الموقع حالياً بـ أبو شهرين، ويظن انه كان يقع على مجرى نهر الفرات القديم أو احد فروع حيث كان يرويها بعد مروره بمدينة أور قرب الناصرية جنوبي العراق، وقد تبين من الآثار المهمة المكتشفة فيها أنها تمثل أقدم مواضع الاستيطان في منطقة السهل الرسوبي، تؤكد ذلك أيضا ما ورد في الأساطير السومرية التالية بأنها كانت من أولى المدن الخمس التي حكم فيها ملوك سومر الأوائل في عصر ما قبل الطوفان استناداً إلى جداول الملوك السومرية، ولذلك كان لهذه المدينة أهميتها الدينية والسياسية في الحضارة العراقية القديمة.[٣٧]

أبانت التحريات في اريدو عن بقايا تسعة عشرة طبقة أثرية تنتظم في ادوار حضارية مختلفة، فقد تبين أقدم طبقة تخطيط قرية زراعية بسيطة يبدو إن السكان اتخذوا الأكواخ مساكن لهم لخلوها من المباني، في حين اتضح من الطبقات الأحدث منها هياكل الأبنية السكنية المشيدة من الطين ثم من

اللبن،[٣٨] وشيدت بالقرب منها سلسلة من المعابد بعضها فوق بعض، ومن نتيجة التحري أمكن تحديد الخصائص المعمارية لتخطيط أقدم المعابد فيه (والذي يمثله المعبد السادس عشر) حيث كان يتألف من حجرة مربعة تقريباً تضم دكة لوضع تمثال الإله عليها وأمامها دكة القرابين، وتم توجيه زوايا البناء نحو الجهات الأربع الرئيسة، وزينت جدرانه بالطلعات والدخلات وهي احدي المظاهر المعمارية البارزة للمباني الدينية والتي ظلت ملازمة لها إلى آخر عهودها التاريخية القديمة، وقد أخذت أبنية المعابد تتطور في معظم المواقع العبيدية على مر الزمن استناداً إلى أدلة الطبقات الأثرية، وأصبحت بعضها تشيد على مصاطب مرتفعة يرقى إليها بنمحدرات ترابية أو سلالم جانبية، ولعل هذه المرتفعات الاصطناعية شكلت بدايات ما يعرف بالأبراج المدرجة (الزقورات) التي تميزت بها جميع المدن العراقية القديمة تقريباً في العصور التالية.[٣٩]

أما فخار اريدو فانه يتميز بأنه ذو لون واحد وعلى الأغلب يكون اسمر غامق تزينه خطوط أفقية متوازية، في حين يتميز فخار حاج محمد بلونه القاتم المائل إلى الحمرة الأرجوانية من الأعلى وقعر الأبنية فيها ذات لون اصفر تقريباً.[٤٠]

العقير:

وهي من قرى دور العبيد وتمثل استيطاناً مبكراً في السهل الرسوبي وتقع على بعد ٧٥ كم جنوبي بغداد، بدأت التنقيبات فيها عام ١٩٤٠ من قبل مديرية الآثار العراقية، وقد عثرت فيها على بيوت مبنية من اللبن تنتظم على طرق مرصوفة، ويشمل تخطيط البيت فيها على عدة حجرات، كما تحوي على نماذج للتنور شبيهة بالتنانير المستخدمة حالياً في مناطق الأرياف، ويبدو من الملتقطات المكتشفة إن سكان القرية قد صنعوا بعض الآلات والأدوات في تأدية أعمالهم الزراعية ومنها المناجل والفؤوس المصنوعة من الفخار، يضاف إلى ذلك إن الحجارة الطبيعية ظلت المادة الأساسية في صناعة قسم من أدواتهم الزراعية كالمحراث، إذ يظهر إن المحراث المعدني لم يكن قد شاع استعماله بالرغم من معرفة تصنيع المعادن، كما وجدت ضمن الملتقطات ابر عظمية وأقراص للغزل مما يوحي إلى تقدم الحياكة والنسيج، أما فخار العقير المكتشف من نوع العبيد فيتميز معظمه باللون الأسود.[٤١]

تبه كورا:

تقع هذه القرية شمال مدينة الموصل بنحو ٢٠ كم، وتتميز بآثارها المتطور واتساعها وإتقان تشييد المباني فيها، وكشفت بعثة تنقيب أمريكية نحو عشرين طبقة أثرية فيها، زمن نتيجة التحري تبين إن أقدم طبقات السكنى فيها تعود إلى عصر حلف، أما الطبقات السكنية الأحدث منها فمعظمها عائدة إلى دور العبيد استناداً إلى الفخاريات المكتشفة فيها.[٤٢]

شيدت معظم بيوت هذه القرية كباقي بيوت دور العبيد الجنوبية من اللبن، كما إن البعض الآخر قد شيدت من الحجارة لتوفرها في المنطقة الشمالية، وعثر في تلك البيوت على أدوات نحاسية، فضلاً عن بعض الخرز الذهبية،[٤٣] كما وجدت في هذه القرية بقايا ثلاثة معابد وهي تماثل معابد اريدو من حيث الخصائص المعمارية، إلى جانب ذلك عثر في (ط ١٣) عن بنائين مستديرين تضاهي أبنية ثولوي الدائرية والتي شاع تخطيطها في قرية الاربجية من دور حلف السابق.[٤٤]

كما كشفت المنقبون عن مجموعة من الدمى الطينية الأنثوية (الإلهة الأم) التي ترمز إلى تقديس العنصر الأنثوي والخصوبة آنذاك.[٤٥] أما المقابر في تبه كورا فكانت عبارة عن حفر دفن اعتيادية

قرب المعابد بالنسبة للكبار، [٤٦] في حين تم دفن الأطفال في جرار فخارية كبيرة بعكس المدافن التي كشفت في اريدو والتي خصصت لها أماكن دفن خارج القرية.[٤٧]

هذا وشهدت قرى العصر الحجري المعدني تقدماً كبيراً في مراحله الأخيرة (٤٠٠٠- ٣٥٠٠ ق.م)، وكما يبدو ذلك واضحا في مجموعة من التطورات والمبتكرات التي حصلت خلال هذه الفترة فقد بدأت مظاهر التمدن بالظهور في قرى المناطق الوسطى والجنوبية، اذ أصبحت هذه القرى نواة للمدن والمراكز الحضارية السومرية الشهيرة التي قامت غيما بعد مثل اور ولجش واريدو ونفّر والوركاء.[٤٨]

فقد أشارت نتائج التحريات الأثرية فيها إلى تقدم ملحوظ فيها من حيث التخطيط والسعة وزيادة عدد دور السكن وأساليب بناءها المتقنة والمتطورة القائمة على شوارع مبلطة لتنظيم حركة التنقل بينها، فضلاً عن كثرة المقابر خارج أسوار القرى، فقد عثر في اريدو على أكثر من الالف قبر تميز البعض منها بانتظامها وتشييدها من اللبن، ولعل هذه الدلائل الأثرية تعرض للباحث بوضوح ملامح الزيادة السكانية الحاصلة آنذاك.[٤٩]

أما تخطيطات المعابد فقد تطورت هي الأخرى وازدادت سعتها وتعددت مرافقها، فضلاً عن جودة بنائها وتقدم طرزها المعمارية، فكان المعبد يضم عدد من الحجرات حول حجرة الإله (سيلا)، ويتم تلوين وتحلية جدرانه الداخلية بزخارف أنيقة ومخاريط فخارية، وزينت واجهاته الخارجية أيضا بالطلعات والدخلات المتداخلة، كما كانت توجه زواياه نحو الجهات الأربعة، ومن هذه المعابد معابد الوركاء وجمدة نصر ونفّر في الجنوب وخفاجي في منطقة ديالى.[٥٠] وأقيمت بعض هذه المعابد على مصاطب مرتفعة (فيما عرف بالزقورات)، ويعتبر معبد العقير من أولى النماذج العالية في هذا الخصوص، إذ شيد على مصطبة تبلغ ارتفاعها حوالي ٤ أمتار، وتم تزيين جدرانه بمشاهد ملونة لأشكال آدمية وحيوانية، وتعد هذه المشاهد من أقدم المشاهد الجدارية المكتشفة حتى الآن.[٥١]

وفيما يخص الصناعة الفخارية فقد تم الكشف عن أنواع جديدة من الفخاريات المصنوعة من معظمها لأول مرة بواسطة الدولاب، وكان من نتائج هذا الابتكار أن ظهرت ثانية الأواني الفخارية ذات الألوان والتي يتم تزيينها بنقوش هندسية أو طبيعية، على الرغم من أن فخاريات هذه المرحلة يظهر عليها بعض التدني من حيث المستوى الفني (تقنية الصناعة والزخرفة والتلوين) بالمقارنة مع فخاريات الأدوار السابقة، ويفسر البعض تدهور هذه الصناعة إلى زيادة استخدام المعادن في صناعة الالات والادوات وبعض الأواني المنزلية.[٥٢]

ومن المبتكرات الجديدة خلال هذه المرحلة صنع الاختام الاسطوانية لأول مرة لغرض تثبيت الاموال المنقولة في الجرار الفخارية، فكان يتم دحرجة الختم الاسطواني المنقوش برموز معينة على الطين الطري الذي يسد فوهة الجرار التي تضم تلك الأموال وبذلك يصبح من المستحيل التلاعب بمحتوياتها الا بحضور صاحب الختم المطبوع على الفوهة.[٥٣] يضاف إلى ذلك وردتنا من هذه الفترة نماذج عدة من الأختام المنبسطة ذات الشكل البيضوي أو الدائري تم تزيينها بخطوط متوازية وحفر صغيرة.[٥٤]

كما كانت صناعة العربات من المبتكرات المهمة خلال هذه المرحلة (حدود ٣٨٠٠ ق.م)، وصنعت العربة على ما يبدو في أول على هيئة زحافة يجرها ثوران، الا انه بعد اختراع الدولاب أو العجلة تحولت الزحافة إلى عربة ذات عجلات تستخدم للمواصلات.[٥٥]

ومن متابعة الاثار العائدة إلى هذه الفترة يظهر انه تم استخدام الزوارق في النقل المائي، فضلاً عن اختراع الشراع للافادة من قوة الرياح في الدفع، ووجدت اقدم نماذج هذه الزوارق في اريدو، كما استخدم الحيوان في النقل البري ايضاً.(٥٦)

لقد مهدت التطورات السابقة إلى تعدد الحرف والمهن المختلفة وظهرت فئة من الصناع المتخصصين في تصنيع المعادن وصناعة الفخار والنسج وصناعة الالات والأدوات الزراعية والاختام والاسلحة وغيرها، فقد كان ذلك عاملاً في الانقلاب الحضري آنذاك.(٥٧)

غير أن أهم تطور شهده العصر كان في مجال الزراعة الواسعة المعتمدة على الإرواء حيث نشطت مشاريع تنظيم شؤون الإرواء والاهتمام بالأنهار وبالسدود وخصوبة التربة وجهود الفلاحين مما كان عملاً مشجعاً على التنظيم الاجتماعي والتعاون على نطاق واسع هذه الجهود المنظمة إلى حدوث فائض في الإنتاج الزراعي تم مبادلته (أو ما يعرف بالمقايضة) بمواد غريبة مثل الأحجار الكريمة واللازورد والأصداف والأخشاب والذهب والفضة والنحاس وبعض المواد الأخرى غير المتوفرة في ارض العراق، فنشطت بذلك حركة التجارة الخارجية والاتصال مع البلدان المجاورة ومنها الأناضول وسوريا وبلاد عيلام ومصر وبعض الأجزاء الساحلية من الخليج العربي.(٥٨)

وكان من النتائج الطبيعية لتطوير الحياة في المناحي المختلفة في نهاية العصر الحجري (حدود ٣٥٠٠ ق.م) أن توّج العراقيون القدماء ابتكاراتهم باختراع الكتابة لأول مرة في تاريخ الحضارة والتي تعد بحق أهم انجازاتهم الحضارية آنذاك.(٥٩)

وبذلك يتبن من الملامح الحضارية التي اوجزناها إن هذا العصر كان يحمل جنين التطورات التي تمخضت عنها ولادة الحضارة السومرية التي ازدهرت في بداية الاف الثالث ق.م.

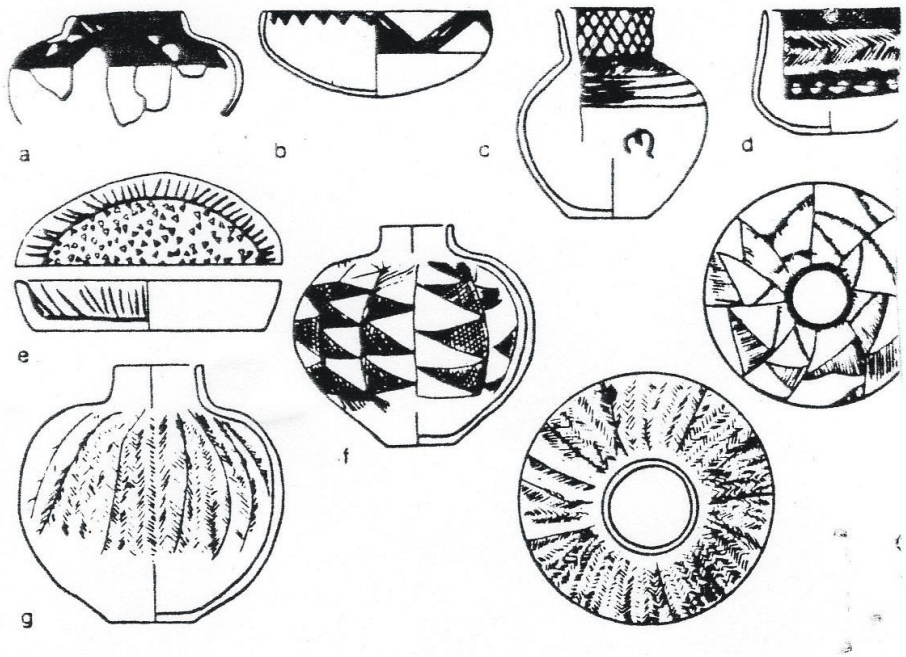

شكل (١)

نماذج من فخاريات حسونة

عن : Mellaart, P. ١٤٨

شكل (٢)

نماذج من دمى الإلهة الأم في تل الصوان

عن : Mellaart, P. ١٥٣

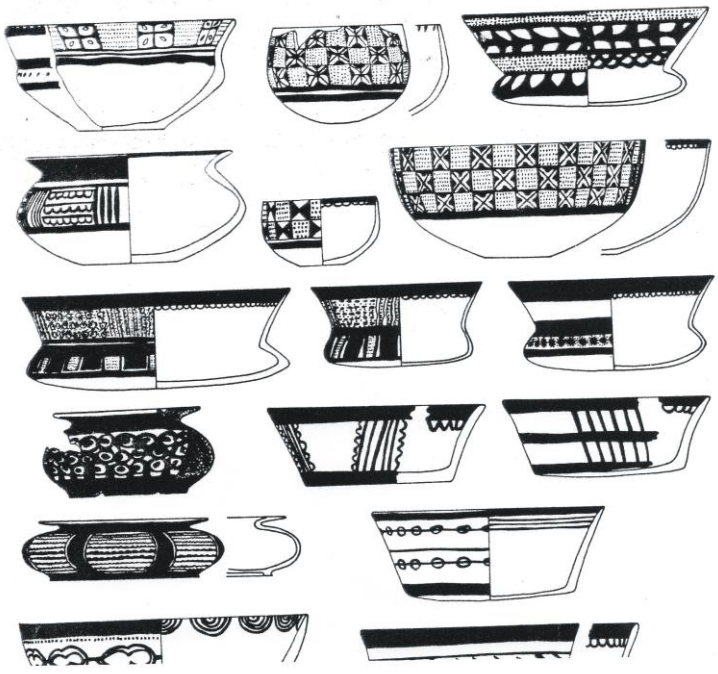

شكل (٣)

نموضج من فخاريات حلف

عن : Mellaart, P. ١٦٣

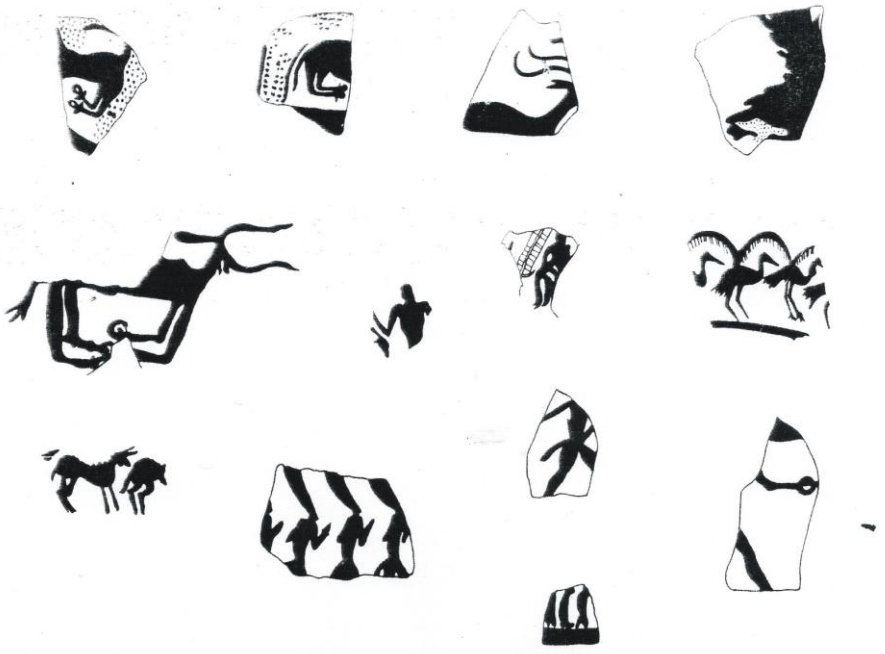

شكل (٤)

بعض المشاهد المنفذة على فخاريات حلف

عن : Mellaart, P. ١٥٦

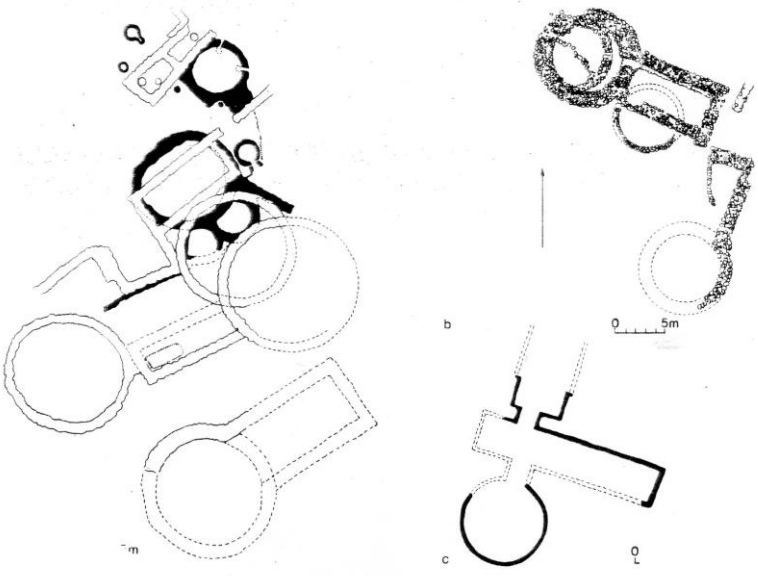

شكل (٥)

نماذج من بيوت الثولوي في الاربجية

عن : Mellaart,

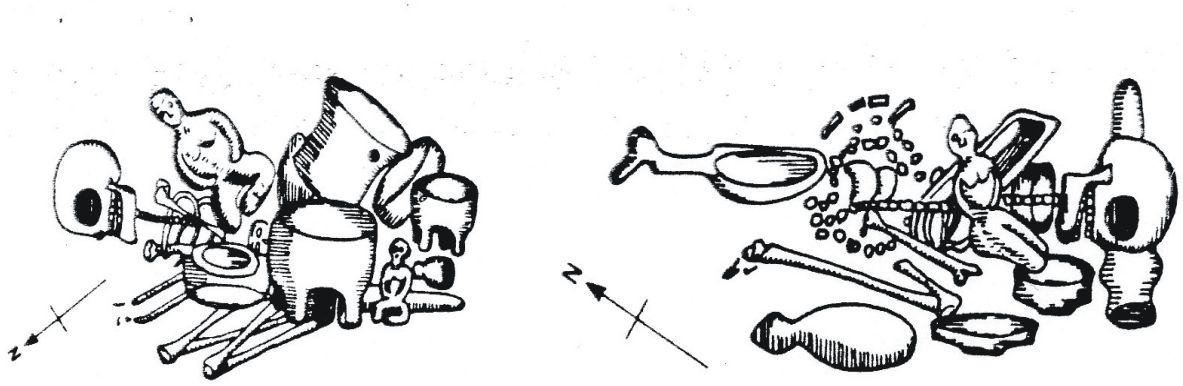

شكل (٦)

الأثاث الجنائزي في مدائن تل الصوان

عن: Mellaart,

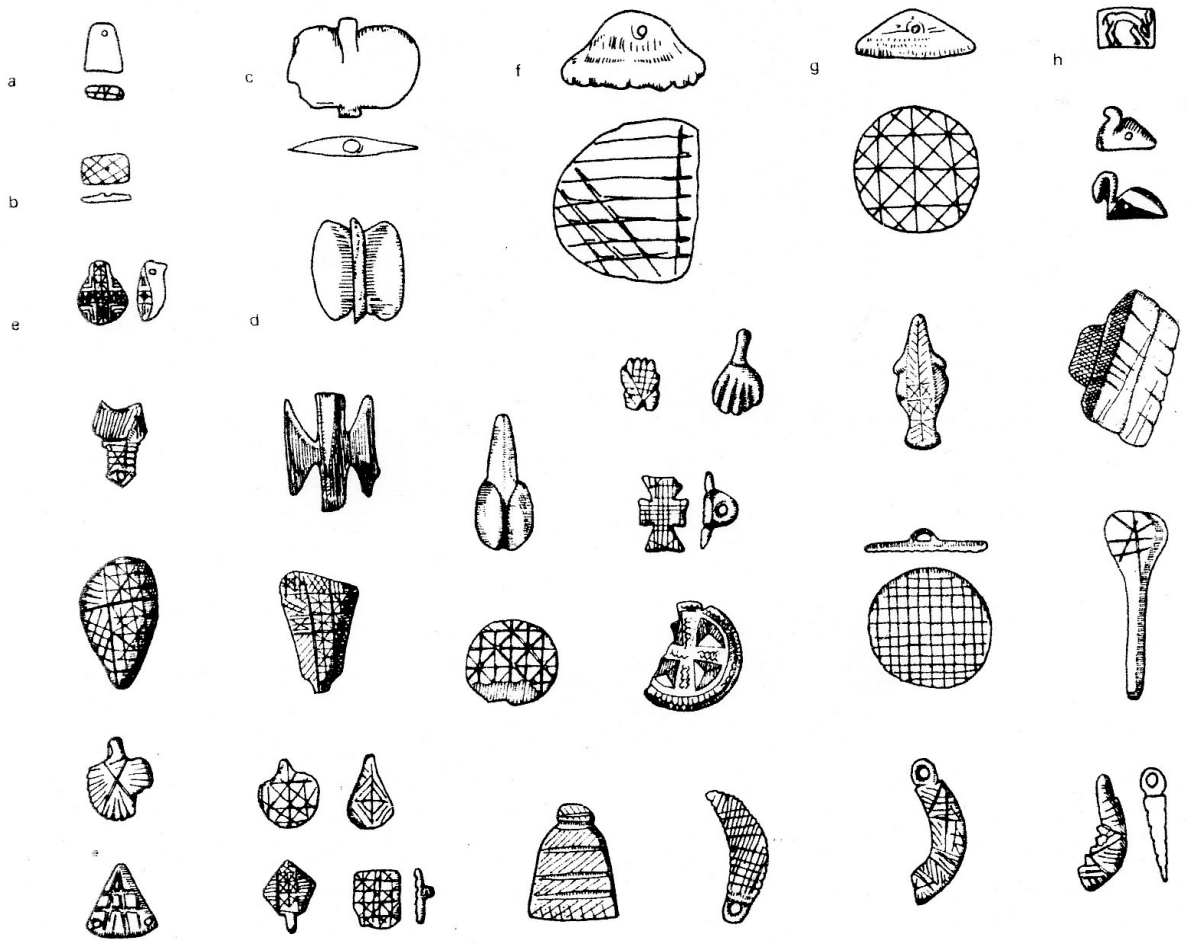

شكل (٧)

نماذج من الأختام المكتشفة في حلف

عن : Mellaart,

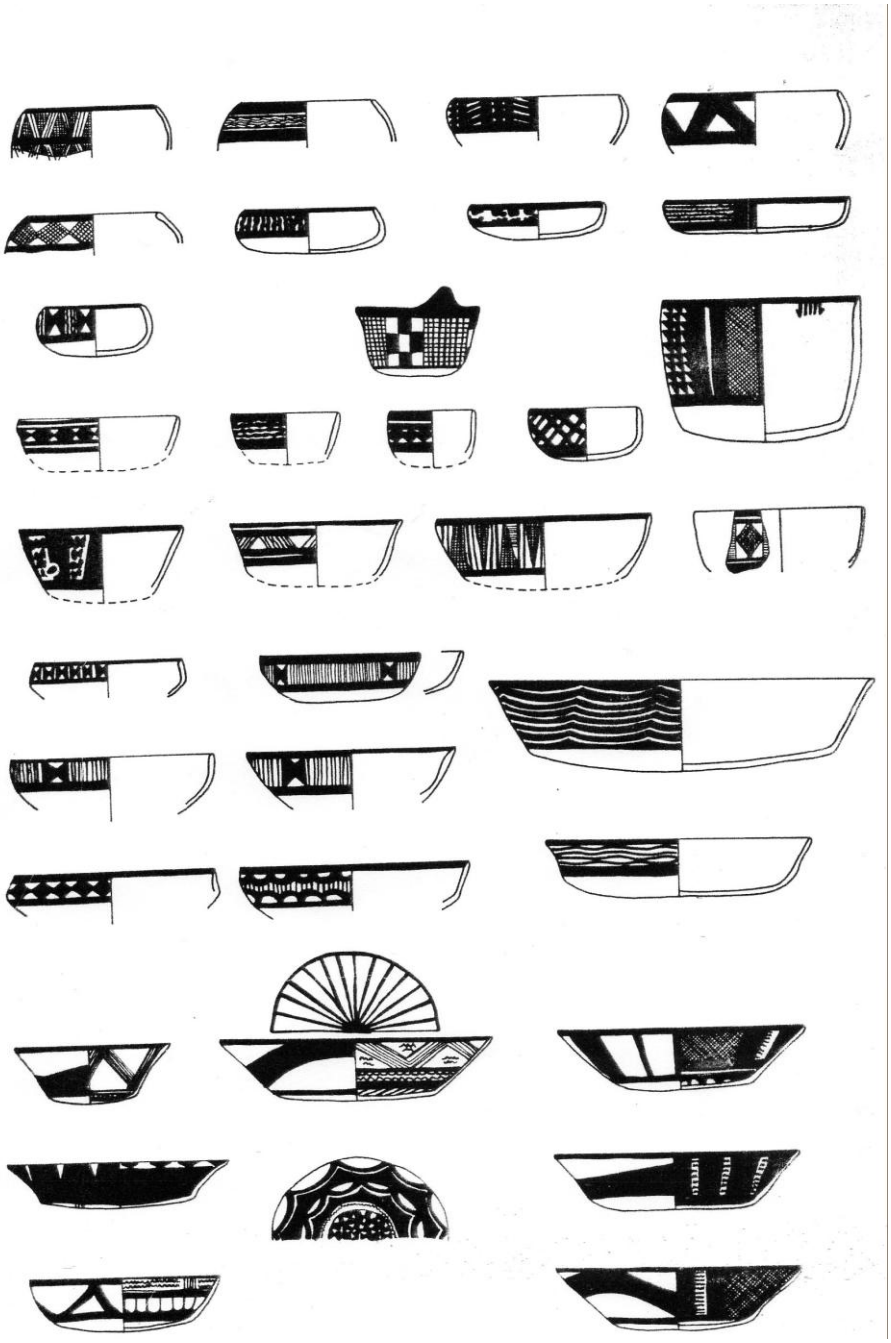

شكل (٨)

نماذج من فخاريات العبيد (حاجي محمد)

عن : Mellaart, P. ١٧٥

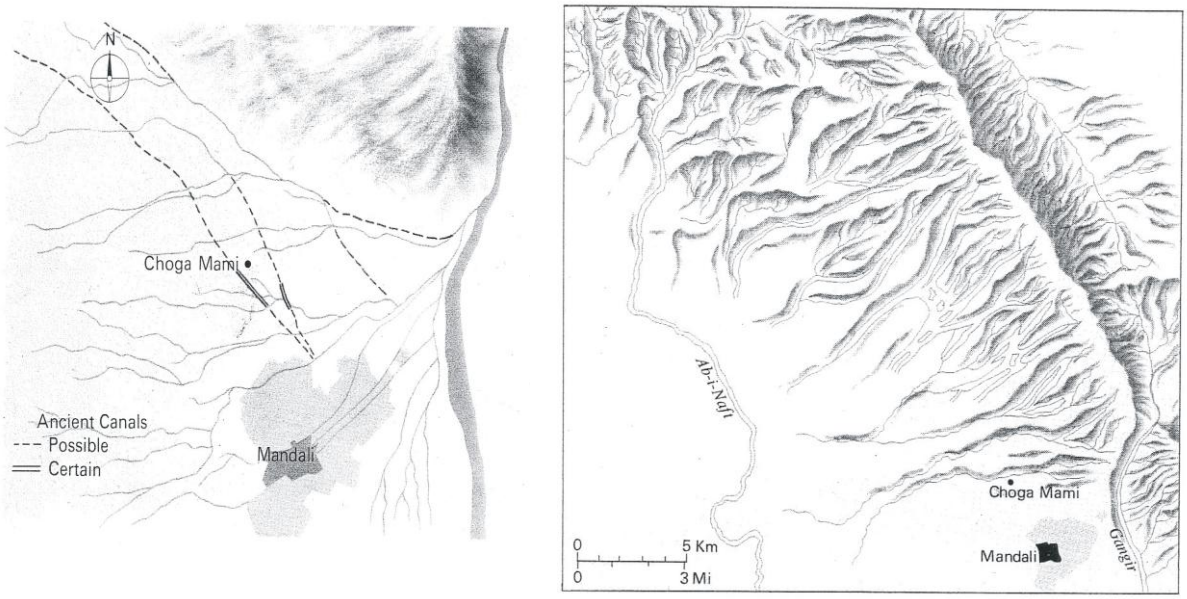

شكل (٩)

مشاهد تبين استخدام مشاريع الري قديماً في منطقة جوخة ما مي من دور سامراء

عن:

O=Oates, David, and Joan, The Rise of Civization, Oxford, ١٩٧٦, P. ٦٤

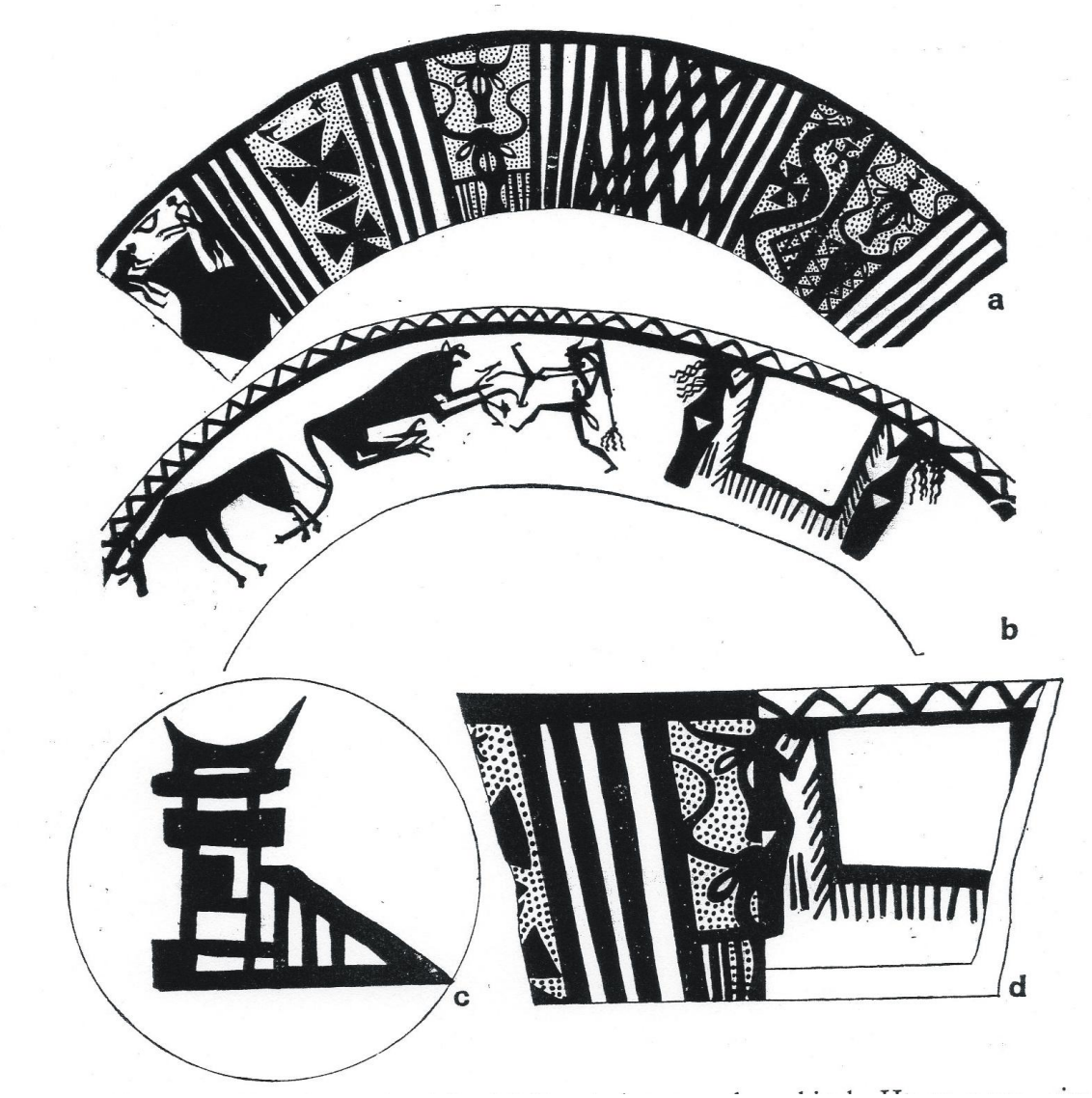

(شكل ١٠)

إناء طقسي من حلف مكتشف في الاربجية نفذ عليه مشهد صيد يظهر صراع إنسان مع حيوان من أجل السيطرة عليه ، ويممن القول بأنه يشبه مسلة النسور من العصر السومري القديم من حيث الموضوع إلا أنها أقدم منها .

عن :

Hijara, Ismail, "Three new graves at Arpachiyah", in : world Archaeology, vol ١٠, No. ٢, ١٩٧٨, P. ١٢٦

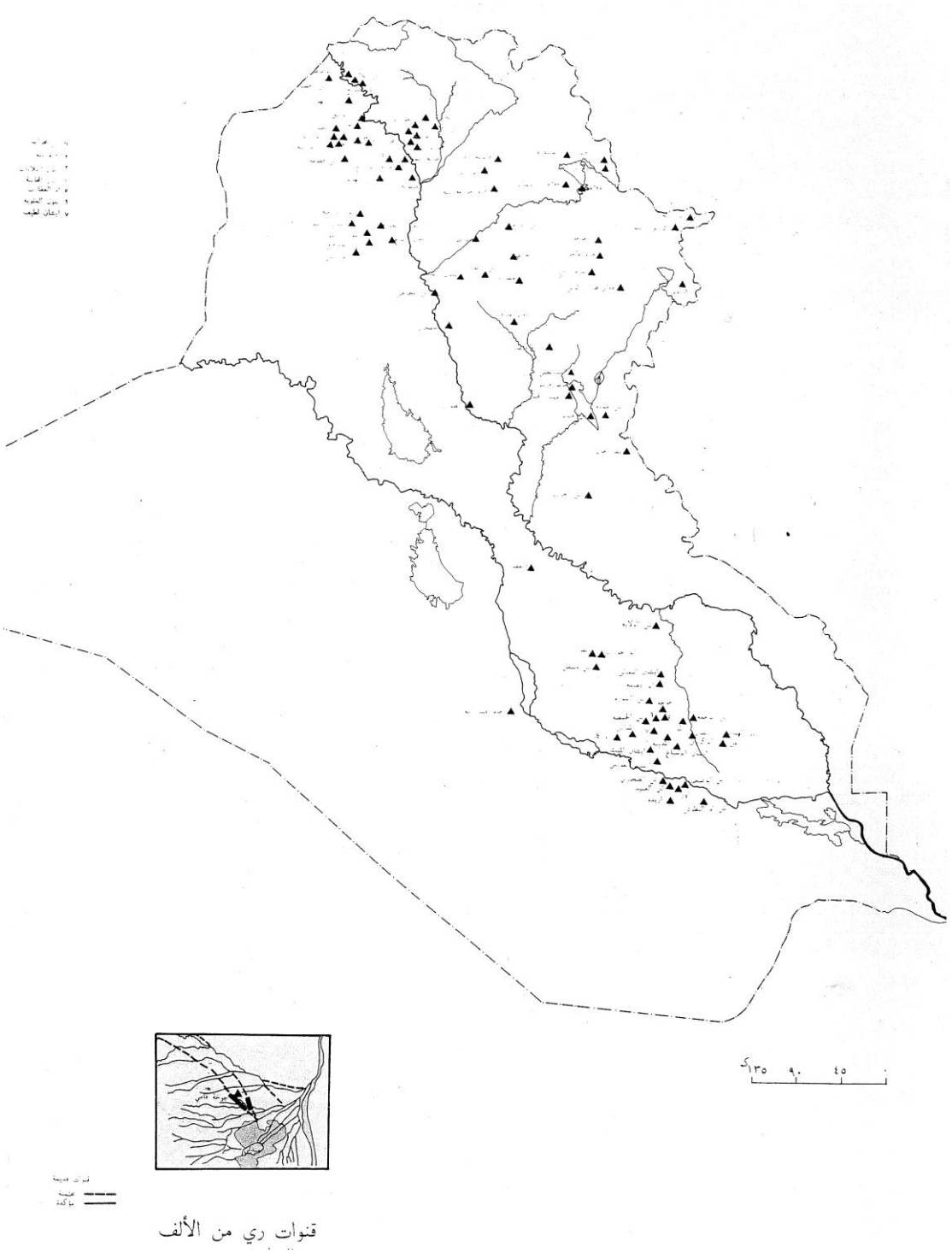

شكل (١١)

خارطة توضح مواقع العصر الحجري المعدني

عن : القصاب ، إبراهيم وآخرون ، أطلس العراق التعليمي ، جامعة الموصل ، ١٩٧٨ ، ص٢٤٥ .

المصادر

١- باقر، طه، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٧٣، ص ٢٠٥.

٢- المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

٣- المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

٤- صالح، قحطان رشيد، الكشاف الأثري في العراق، بغداد، ١٩٨٧، ص ٦٠.

٥- Lloyd, S, and Safar,F, Tell Hassuna, JNES,Vol.٤,No.٤,PP.٢٥٥-٢٨٩.

سفر، فؤاد، " حفريات تل حسونة "، سومر، ١٩٤٥، المجلد الاول، ج٢، ص ص ٢٥-٤٠.

٦- لويد، سيتون، آثار بلاد الرافدين، ترجمة سامي سعيد الاحمد، بغداد، ١٩٨٠، ص ٧٩.

الدباغ، تقي، " الفخار في عصور ما قبل التاريخ "، حضارة العراق، ج٣، بغداد، ١٩٨٥، ص ص ١٦-١٧.

٧- المصدر نفسه، ص ١٨.

٨ - Mellaart ,J , The Neolithic of the Near East, London, ١٩٧٥, P.١٤٨

- Ibid, P.١٤٥

٩ - Op.Cit, P.١٥٢. Lloyd, S, and Safar,F,

١٠- Leemans,W.F, The Importance Of Trade, Iraq,Vol.٣٩ ,No.١ , ١٩٧٧,P ١f f.

١١- باقر، طه، المصدر السابق، ص ٢١٧.

Mellaart , J , Op.Cit, PP. ١٥٠,١٥٣-١٥٤.

١٢- لويد، المصدر السابق، ص ٨٢.

١٣- دكسون، وآخرون، الحجارة الاوبسيدية واصول التجارة، ترجمة رضا الهاشمي، سومر، المجلد ٢٨، ١٩٧٣، ص ص ٢٥٣-٢٦١.

١٤ - James,E,O, The Cult of the Mother Goddes, London,١٩٥٩,PP.٢٢-٢٨.

١٥- اوتس، ديفيد وجوان، نشوء الحضارة (اكسفورد، ١٩٧٦)، ترجمة لطفي الخوري، بغداد، ١٩٨٨، ص ٢٢٢.

- Oates,J, Choga-Mami ١٩٦٧-٦٨ a Preliminary repot, Iraq,Vol.٣١,(١٩٦٩) , PP.١١٥-٥٢.

١٦- المصدر نفسه، ص ٢٢٦.

١٧- انظر المزيد في :

Ottes, J, Prehistoric investigations Near Mandali, Iraq, Vol.٣٠ , ٩٦٨ ,

Helbaek, H, Samarran irrigation agriculture at Choga Mani in Iraq , Iraq , Vol.٣٤,١٩٧٢, PP.٣٥-٤٨.

عن تنقيبات سامراء انظر أيضاً :

El-Wailly,F. and Behnam,Abu Es-ssof : The Excavation At Tell-Es-sawwan, ١٩٦٤,Sumer,Vol.٢١, ١٩٦٥, PP.٢٥-٢٨.

أبو الصوف، بهنام، التنقيب في تل الصوان (الموسم الرابع /١٩٦٧)، سومر، المجلد ٢٤، ١٩٦٨، ص ٤٠.

١٨- الدباغ، تقي، " الثورة الزراعية والقرى الأولى "، حضارة العراق، ج ١، بغداد،١٩٨٥، ص ١٣٢.

- Curtis,J, " Arpachiyan " , in : Fity Years of Mesopotamian Discovery, London, ١٩٨٢ , PP.٣٠-٣٦.

١٩- المصدر نفسه، ص ١٣٢ - Ibid, P.٣٥

٢٠ - Mellaart ,J , Op.Cit, PP. ١٥٦ – ١٥٧.

٢١- باقر، المصدر السابق، ص ٢١٨ - Ibid, P.٣٥

٢٢- Curtis, Op.Cit, P.٣٦

٢٣- لويد، المصدر السابق، ص ٩٢ Mellaart ,J , Op.Cit, P. ١٤٤.

٢٤- Mallawan, M.E.l ,and Rose,J , Excavation At Tell Arpachiyah, ١٩٣٣, Vol.٢٥, Part ١ , P.١٥

٢٥- Munchajev,R,M.and Merpert, N.la , Excavation At Yrim Tepe , summer, Vol.٢٥,١٩٦٩,P.١٢٥ff.
summer, Vol.٢٧,١٩٧١,PP. ٩-١٢.

عن تنقيبات يارم تبه انظر أيضا :

Munchajev,R,M.and Merpert, N.la , Early agricultural settlements in the sinjar plain, Iraq, Vol.٣٥, ١٩٧٣, PP. ٩٣-١١٣ , ٢٠٢-٢٠٣.

٢٦- حول تنقيبات تبه كورا انظر :

Tobler,A,J, Excavation At Tepe Gawra , Vol.١-٢ , Philadelphia , ١٩٥٠.

لويد، المصدر السابق، ص ٨٥

٢٧- Badawy, A, Architecture in Ancient Egypts and the near east , California, ١٩٦٠, P. ٨٧.

لويد، المصدر السابق، ص ٨٥.

٢٨ - يوسف شريف، تاريخ العمارة العراقية في مختلف العصور، بغداد، ١٩٨٢، ص٤٤.

٢٩- أوتس، المصدر السابق، ص٢١٣.

٣٠ - Margueron, J. C: Mesoptamie (Geneva, ١٩٦٥) Printed (٣٠) in Switzerland, Palate ٥, P. ٢١٧.

٣١- الدباغ، الثورة الزراعية، المصدر السابق، ص١٣٤.

Mellart, Op. Cit, P. ١٦٦.

٣٢ – Curtis, Op. Cit, P. ٣٦.

٣٣- البدراني، عدنان مكي، المدينة الاولى بين العصر الحجري المعدني وعصر فجر السلالات، حضارة العراق، ج٣، بغداد، ١٩٨٥، ص ص٢٩٥ ــ ٣٢١.

Leemans, Op. Cit, P. ١ ff.

٣٤– Caldweel, D. A : The Early Glyptic of Gawra, Giyan and Susa, and the Development of long Distance Trade, Or. Ns, Vol ٤٥, Face ٣, ١٩٧٦, PP. ٢٢٧ – ٢٣٠.

٣٥- لويد، المصدر السابق، ص٩٨.

Speiser, E. A : Excavation at Tepe Gawra, Vol ١, Philadelphia, ١٩٣٥, PP. ١ – ٣٦.

٣٦- باقر، المصدر السابق، ص٢٢١ ــ ٢٢٣.

(*) عثرت بعثة تنقيبية المانية في قلعة حاج محمد قرب الوركاء بين عامي ١٩٣٧-١٩٣٩ تحت طبقة من الترسبات الغرينية على فخار يرجح انه أقدم زمناً من فخار موقع العبيد أطلق عليه فخار حاج محمد.

كما كشفت مديرية الآثار العراقية خلال الأعوام ١٩٤٦-١٩٤٩ في موقع أريدو (غربي أور بحوالي ١٥ كم) نوعاً آخر من الفخار تحت الطبقات التي وجدت فيها فخار موقع العبيد القديم مما يؤكد أن هذا النوع يمثل أقدم أطوار السكن في الجنوب.

وفي عام ١٩٦٠ تم استظهار نوع آخر من الفخار في موقع رأس العمية قرب كيش بالناصرية شبيه بفخار حاج محمد ولكن أحدث منه... حول ذلك انظر:

Mellaart, Op. Cit, PP. ١٧٦ – ١٧٩.

Stronach, D : The Excavations at Ras al Amiya, Iraq, Vol. ٢٣, ١٩٦١, PP. ٩٥ – ١٣٧.

٣٧- الدباغ، الثورة الزراعية...، المصدر السابق، ص١٣٨-١٣٩.

٣٨- حول تنقيبات أريدو انظر :

Lloyd, S. and Safar, F : Eridu, Snmer, Vol. ٣, ١٩٤٧, PP. ٨٤ – ١١١, Vol ٤, PP. ١١٥ – ١٢٧, Vo; ٦, ١٩٥٠.

Oates, J : Ur and Eridu, the prehistory, Iraq, Vol ٢٢, ١٩٦٠, PP. ٣٢١ ff.

٣٩ – Safa, f, Al-Mustafa, Lioyd, S. : Eridu, Baghdad, ١٩٨٢, PP. ٧٨ – ٨٨, ٨٨ – ١١٣.

٤٠- حول نماذج من تلك الفخاريات انظر : Ibid, PP. ٢٤٩ – ٢٥١

٤١- صالح، المصدر السابق، ص١٤١.

عن تقنيات تل العقير أيضاً انظر :

Lloyd, S. and Safar, F : Tell Uqair, JNES, Vol ٢, No ٢, ١٩٤٣, P. ١٣١ ff.

- الدباغ، الثورة الزراعية...، المصدر السابق، ص١٤١.

٤٢- عن تقنيات كورا انظر:

Tobler, A, J, Op. Cit, Vol ١-٢, ١٩٥٠.

٤٣- أوتس، المصدر السابق، ص ص٢٦٩ – ٢٧٢. لويد، المصدر السابق، ص٩٤.

٤٤ -Tobler, A, J, Op. Cit, Vol ١-٢, P. ١١٣.

٤٥- James, Op. Cit, PP. ٢٢ – ٢٨.'

٤٦- أوتس، المصدر السابق، ص٢٧١-٢٧٢.

٤٧ - Tobler, A, J, Op. Cit, Vol ١-٢, PP. ٧٧, ١٢١.

٤٨- أوتس، المصدر السابق، ص٢٩٢.

٤٩- البدراني، المصدر السابق، ص ص٢٩٥- ٣٢١.

٥٠ – Frankfort, H. : The Art and Architecture of the Ancient Near East, London, ١٩٦٩, PP. ٣ – ٦٠.

٥١- مورتكات، انطون، الفن في العراق القديم، ترجمة : عيسى سلمان وسليم الكريتي، بغداد، ١٩٧٥، ص٢٩.

٥٢- باقر، المصدر السابق،ص٢٣١، ٢٣٢.

Mellaart, Op. Cit, PP. ١٧٦ – ١٧٩.

٥٣- سليمان، عامر، اللغة الأكدية، لموصل، ١٩٩١، ص١٠٨.

٥٤- لويد، المصدر السابق، ص٩٨.

٥٥- Child, G : A Histiry of Technology, Oxford, ١٩٦٧, P. ١٨٧.

٥٦- Safa, and Al-Mustafa, Lioyd : Op. Cit, P. ٢٣١.

٥٧- الدباغ، تقي، الزراعة والتحضر، العراق في موكب الحضارة، ج١، بغداد، ١٩٨٨، ص٦٤.

٥٨- الدباغ، الثورة الزراعية...، المصدر السابق، ص ص١٣٧- ١٣٨.

٥٩- سليمان، المصدر السابق، ص ص١١٠-١١١.